تمهيد

يتناول علم البلاغة في مصطلح بعض الأدباء ثلاثة فنون : الأوّل ما يُحْتَرز به عن الخطأ في تأدية المراد ، وهو علم المعاني ؛ والثاني ما يُحْتَرز به عن التعقيد المعنويّ ، وهو علم البيان ؛ والثالث ما يراد به تحسين الكلام ، وهو علم البديع . وبعضهم يُطلِق علم البيان على هذه الفنون الثلاثة ، ويخصّ الاثنين الأوّلين بعلم البلاغة .

ولا يُعْرَف بالضبط أوّل من ألّف في علم المعاني ، وإنّما يؤثر فيه نبذ عن بعض البلغاء كالجاحظ[1] وابن قُتَيْبَة[2]

ولم يسبق أحد أبا عُبَيْدة[3] بن المثنّى في تدوين كتاب فيه شيء من

---

١ ــ الجاحظ ، هو أبو عثمان عمر بن بحر الكنانى البصرى الملقب بالجاحظ ، لجحوظ عينيه ولد بالبصرة ونشأ بها . وأكب على تحصيل فنون الادب ، فبرع فى كل علم وفن ، له تصانيف عديدة منها : كتاب « البيان والتبيين » ، وكتاب « الحيوان » ، وكتاب البخلاء . توفى سنة ٨٦٨م، ٢٥٥ هـ .

٢ ــ ابن قتيبة ، هو أبو محمد عبد الله الدينورى ، ولد ببغداد ، كان فاضلا ، متفننا فى العلوم سكن بغداد ، وحدث بها ، وأقرأ ، ثم انتقل الى دينور ، وأقام بها فنسب إليها . له كتاب « أدب الكاتب » ، وكتاب « المعارف » ، وكتاب « المعانى » ، توفى فجأة سنة ٨٨٣ م ، ٢٧٠ هـ .

٣ ــ أبو عبيدة ، هو معمر بن المثنى . كان أبوه يهوديا من أهل ناجروان ببلاد فارس ، ولم يزل ابنه مبغضا للعرب أشد البغض ، وهو مدخول فى دينه ، خارجى المذهب خبيث اللسان ، كان رث الهيئة ، قذر اللباس ، سيء المنظر والمخبر ، إلا أنه فى مقام سلم من حيث العلم والأدب . له كتاب « مجاز القرآن » فى البيان . ولما كان خبيث اللسان دس له بعض أعدائه سما يهودى وأطعمه إياه فمات سنة ٨٢٤ م ، ٢٠٩ هـ

علم البيان ؛ ولكننا نعلم بالتدقيق أنَّ أوَّل من دوَّن في البديع هو الخليفة عبد الله بن المعتزّ[١] ؛ ثم صنّف في هذا الفنّ معاصرهُ قدامة الكاتب البغداديّ[٢] كتاباً أسماهُ « نقد قدامة » .

وما زالت هذه العلوم تسير في طريق النموّ حتّى جمع قواعدها المبعثرة الإمام عبد القاهر الجرجانيّ[٣] . ثمّ تلا من تقدَّم أبو يعقوب السكّاكيّ[٤] فجمع في القسم الثالث من « المفتاح » زبدة ما كتبه الأئمّة قبله في هذه الفنون ، ورتّبها أحسن ترتيب ، وبسطها أكمل بسط . فلم يترك لمن جاء بعده زيادة لمستزيد .

---

١ ــ ابن المعتز ، هو أبو العباس عبد الله بن الخليفة المعتز بالله ، كان شاعرا مطبوعا . نبيه المعانى عذب الالفاظ ، حسن الابداع ، شعره غاية فى الظرف ، وطلاوة الجديد . له كتاب البديع جمع فيه من هذا الفن سبعة عشر شكلا . بويع بالخلافة ، وتلقب بالمرتضى ، فتغلب عليه أصحاب المقتدر . فاعتقل وخنق ، ولم تدم خلافته إلا يوما واحدا . توفى سنة ٩٠٨ م ، ٢٩٦ هـ

٢ ــ هو قدامة بن جعفر الكاتب أديب شاعر تولى منصبا كبيراً فى الدولة العباسية ، وكان معاصرا لابن المعتز ، وألف فى البديع كتابه المذكور ، وزاد على ما وجده ابن المعتز ثلاثة عشر شكلا . توفى ببغداد سنة ٩٢٢ م ، ٣١٠ هـ

٣ ــ هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ، اشتهر بالتدين والزهد فى حطام الدنيا والتمسك فى إقامة شعائر الدين . قيل انه كان يوما فى الصلاة ، فدخل عليه لص ، وأخذ ما وجد عنده من المتاع ، ولم يقطع صلاته . وضع علم البيان فى كتابين : « دلائل الاعجاز » فى المعانى ، وأسرار البلاغة » فى البيان . له الفضل فى القضاء على زخرف الكلام والاسجاع الناقهة التى كانت شائعة فى زمانه . توفى سنة ٩٧٦ م ، ٣٦٦ هـ

٤ ــ السكاكى : هو سراج الدين ابو يعقوب السكاكى ، ولد فى خوارزم ، وتوفى فيها . له كتابه الشهير « مفتاح العلوم » فى الصرف ، والاشتقاق ، والنحو والمعانى والبيان ، والعروض ، توفى سنة ١٢٢٨ م ، ٦٢٦ هـ

واكتفى من جاء بعد هؤلاء باختصار ما ألّفه السكاكيّ أو بشرحه أو تحشيته ، وأوفى كتاب بلغنا هو تلخيص المفتاح للقزويني[١] .

وجاء المعاصرون ، فطبعوا على غرار من تقدّم : من تلخيص وشرح مع ميل يسير إلى مقتضيات النهضة الحاضرة ، وطرق التربية والتعليم الحديثة .

وقد حاول بعض أدباء العصر توسيع دائرة فنون البلاغة المرسومة سابقاً ، أخذاً عن قدماء الكتاب ، واقتباساً من آداب الإفرنج ، فأضافوا إليها عدّة أبحاث في صفات المعاني ، وأساليبها ، ومحاسن الإنشاء ومعايبه ، وطبقاته وفنونه كما فعل الأب لويس شيخو اليسوعيّ[٢] ، في كتابه « علم الأدب » وغيره من العلماء ؛ بيْدَ أنّ طائفة من الأدباء لم يرقهم هذا التجديد ، فبقوا محافظين على القديم . ولعلّ الاحتكاك بالغرب ، وتناول كثير من عاداته وأساليبه الإنشائية تحدو بالمتأدبين إلى السير بهذه الفنون خطوة إلى الأمام . فإنّ الأمور مرهونة بأوقاتها ، وكلّ آتٍ قريب ؟

---

١ ــ القزويني ، هو جمال الدين محمد بن عبد الرحمن ، ولد في الاناضول ، وتعلم الفقه ، وتولى القضاء ، وانتقل الى دمشق ، وتولى الخطابة في مسجدها ، ثم القضاء بمصر ، وتمكن نفوذه في أيام الملك الناصر . عاد الى دمشق وتوفي فيها سنة ١٣٢٨ م ، ٧٣٩ هـ .

٢ ــ الاب لويس شيخو : هو رزق الله شيخو . ولد في ماردين سنة ١٨٥٩ ، من أبوين فاضلين من طائفة السريان الكلدان . ودخل مدرسة غزير ، وهو غصن رطيب ، في الثامنة من سنه ، ولم يلبث أن نمى فأينع ، وأزهر فأثمر . إنخرط في سلك الرهبة اليسوعية ، وتعلم العلوم والآداب اليونانية واللاتينية والفرنسية في فرنسا . وعاد الى الشرق في غرة النهضة الحديثة . فعلم العلوم العربية ، والكتب عزيزة نادرة ، ورأى مايعوز التدريس من الكتب في هذه اللغة . فشمر عن ساعد الجد . وجاب البلاد شرقا وغربا ، منقبا عن المخطوطات والكتب القيمة ، ثم صرف همته مدة خمسين سنة ، الى تأليف الكتب الجمة ، وتحرير مجلة المشرق مدة ربع قرن .

وكان الاب شيخو كاهنا ورعا ، ولاهوتيا مدققا ، وفيلسوفا بارعا ، ومجادلا أديبا ، ومؤرخا صادقا . توفي سنة ١٩٢٧ .